الحاق علم المعاني بالنحو [1] ، تحقيقا لهـذه الفكرة التي تتردد على الخواطر منذ زمن طويل. وبعد تبني الدواعي الاجـتماعيـة والأهداف لا نستغرب أن يتبنـى مسلمات هذا الاتجـاه. وقد تبنّـى كبـرى هذه المسلّمـات تلك التي تقـول بتأثر الـنحو العـربي بالمنطق والميتافيزيقا [2] . فذكّر بالمقولات العـشر لأرسطو وبيّن الصّلة التي يراها قائمة بين كل مقـولة وبعض مظاهر التفكير النحـوي. وقد نتج عن تبنّى أقوال أصـحاب التيـسير أيضا حـضور تصوّر تجريبي للمـمارسة العلميـة لا تختلف اختلافـا جوهريا أعراضه عن تلك التي تناولناها سابقا في هذا البـحث، وتبدو غريبة في تجاورها مع الأقوال الـدالة على القطع مع التجـريبيـة التي وردت في كـتابه مناهج البـحث في اللغة.

من ذلـك تـلـك الدعـوة إلـى الـتبـسيـط وتضـيـيـق مـجـال الـدراسـة بالفـوائـد العملية العاجـلة ومجافاة التعـمق. و قام عليها اعتمـاد ابن مضـاء خيـر دليل [3] . وهي صدى من أصداء عـدم التمييز بين البحث النظري والبـحث التطبيقي وصورة من صور خلط خصائص أحـدهما بالآخر خلطا يغبن البحث النظري ويشوه صفاته.

ومن ذلك أيضا هذا الـتصور لعـلاقة الوقائع المدروسـة بالفرضـيات النظرية الذي يخلط بين المسلمـات الماقبلية والـفرضيـات العلمية. لاحظنـا ذلك من حكمه عـلـى نظـام العـوامل، ولاحظناه خـاصـة عنـد رفـض التـقـديـر جـمـلـة ورفض القـول بالأصـل الـنظـري الذي تُرَدّ إليـه الفـروع سـواء كـان ذلـك على المسـتـوى الصرفـي كردّ قال إلى قـول أو على المسـتوى النحـوي كرد قام إلى قـام زيد بتقـدير الضـمـير، والحـال أن النحـوي بحـاجة إلى ذلك لـلسيطرة عـلى شتـات المعطيـات واقتصاد وصفـها في لفظ وجيز. وكأنّ هذا القول يفترض بصفـة ساذجة تطابقا كليا بين الوقائع التي ندرسـها والوصف الذي نبنيه لهـا عبر معـرفة علمية إلا أن عـلاقتنا بالواقع ليست مباشرة.

---

1 اللغة العربية معناها ومبناها ص 18.

2 أنظر ص 29/28/27/26 من مناهج البحث في اللغة

3 المرجع نفسه ص 27.